فى زلة أخلاق

داؤنا و دواؤنا

للدكتور يحيى أحمد الزبيدى

إذا بحثنا عن شقاء المسلمين وضعف الأمم الاسلامية نراها يرجعان الى أسباب كثيرة منها : —

١ ـ ترك الحياة فوضى لا برنامج لها ، فترى الانسان يعيش بلامبدأ ولا غاية

٢ ـ الاسترسال فى الشهوات والشهوات لدرجة انحطاط النفوس البشرية إلى المستوى الحيوانى ، فتفككت الروابط بين المسلمين وانحلت عزائمهم وتبعثروا فى منافعهم الشخصية دون الالتفات إلى المنفعة العامة .

أما عن السبب الأول وهو أن يعيش الانسان بلا مبدأ ولا غاية ، فذلك يرجع إلى ضعف التربية الدينية والخلقية ، وتقليد فاسد العادات من الغرب والشرق ، فصار الملق والرياء كياسة ، والكذب والمكر والخديعة سياسة ، والفسق والفجور طراز المعيشة الراقية . أما تفضية أما القضاء : فكلاهما أصبح من الآثار البالية والأخبار الخالية .

وصف أحد الكتاب الأنجليز روح العصر الحاضر بما ينطبق على حالتهم ونشترك فيه معهم إذ علينا من المدنية الغربية الغرم دون أن يكون الغنم — قال :

نحن فى هذا العصر لا نسعى إلى استمالة كريم الأخلاق ، العالى التربية ، الحسن الحال ، بقدر ما نسعى إلى استمالة الوضيع قليل التربية سيء الحال ، لأن هذا الثانى صوته صوت العامة . حتى لقد نرى ذوى المناصب وأرباب الثروة والتربية يتزاحمون ذلا على أقدام الجهلة رغبة فى الحصول على أصواتهم .

فوا عجباً لقوم يرغبون فى أن يكونوا مؤيدين ، وإن استلزم ذلك ذبذبتهم وضياع ذممهم : وواعجبا لتلك الغبطة التى تؤثر الذل والتملق على الآباء والعزيمة وعزة النفس ، وترى الاستسلام للأوهام الباطلة خيراً من مقاومتها : فليت شعرى هل ترى أمثال هؤلاء أنه لابد لمقاومة تيار الماء من قوة وشجاعة : وأن السير مع هذا التيار لايحتاج إلى شيء من ذلك البتة إذ يقوى عليه السمك الميت ؟ »

لو أمعنا النظر فى حياة الفوضى بل حياة الإباحة والاستهتار ، نراها حياة ذل وشقاء على الرغم من مظاهرها البراقة الخادعة ، وأساليبها البهيجة الفتانة . لأنها حياة غير مستقرة على أساس ، والنفس إذا ضلت تعذبت وشقيت . شأنها شأن الفائه الحيران ، أو شأن الغريق الولهان يؤلمه الاضطراب ، لأن الأصل فى سعادة النفس البشرية هو الطمأنينة ، وهذه لا تكون إلا على أساس الفضيلة ، والاعتصام بالمبادىء السليمة — رب سائل يقول : ألم تكن الفضيلة تحتاج إلى نضال الشهوات . وهل فى الكفاح طمأنينة ؟ نعم .. مثل المسترسل فى الشهوات ، ومثل المعتصم منها إلا فى حدها المطلوب ، كمثل رجلين سارا على حافة البحر ، فقال أحدهما إن السير فى الماء أسهل من السير على اليابسة ، وهو لا يحسن السباحة ، فنزل فى البحر فصارت تتقاذفه الأمواج فهى لا تعلو به تارة إلا وتحط به تارات ، وأصبح مشرفاً على الغرق ، وأما الآخر فسار على الدرب حذراً من الانزلاق والوقوع ، فكفاحه قائم على قاعدة يسير عليها وله غاية تحدده ، فنفسه مطمئنة فى عمله ، فالرذائل لا حد لها ولا قرار ، وهذا على عكس الفضيلة حدودها معروفة .

عرف الدين الإسلامى الفضائل ودعا إليها ، وحذر من الرذائل ونهى عنها ، فقال تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

فأساس الفضيلة هو التوحيد وأن لا يرى الأنسان على نفسه سلطاناً إلا الله عز وجل ، وإذا ما استمسكت النفس بحب خالقها والإخلاص له ، سهلت عليها طاعته ، وهان عليها البشر لأنه لا يملك لها نفعا ولا ضرا . وإن من طلب رضا الناس وتحريتهم يسخط الله ، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس . بل رضا الناس غاية لا تنال ، فرضا الله أولى بالطلب

كان سيد المرسلين ﷺ يشترى الشىء فيحمله إلى بيته ، فيقول له صاحبه أعطنى أحمله فيقول له : صاحب الشىء أحق بحمله ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول ، وهو والى المدينة والحطب على رأسه : طرقوا الأمير كم أى أفسحوا الطريق . وقد سأل موسى عليه السلام ربه ، فقال يا رب احبس عنى ألسنة الناس ، فقال : يا موسى هذا شىء لم أصطفه لنفسى ، فكيف أفعله بك ؟

يجب أن يكون رضاء الله عز وجل غاية الانسان ، فيروض نفسه على اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن كان الله تعالى نهايته كان الخير وسيلته ، ومحبة الناس والسعي لمنفعتهم من برنامج عمله

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني . فقال : (اتق الله حيث كنت) قال زدني . قال (أتبع السيئة الحسنة تمحها) قال زدني : قال (خالق الناس بخلق حسن)

أما السبب الثاني فهو استرسال المسلمين في شهواتهم مما تسبب عنه تدهورهم وانحطاطهم فلا يصلح حالهم إلا بقيام الأفراد والجماعات ببث دعوة قوية ضد التيارات الفاسدة التي تجترف ضعاف النفوس والدهماء من العامة أمثال الجرائد والمجلات الخليعة ، وأشرطة السينما التي تمثل الحب والغرام في أسفل مظاهره ، وروايات قطاع الطرق واللصوص فتجعل منهم أبطالا ، وبث النصح والإرشاد إلى الآباء والأبناء بالتمسك بآداب الشرع الشريف ، وخصوصاً فيما يتعلق باللسان والفتيات وتهتكهن حتى أصبح الانسان لا يميز بين الحرة والبغي .

إذا لم يجد شباب المسلمين خاصة ، وشبان الشرق عامة ، من عزائمهم قوة لمقاومة دعوة الملحدين وما نجم عنها من الاستهزاء بالفضيلة ونبذها جانبا ، فليوطنوا أنفسهم على أن يكونوا فريسة الشر ، ومحطاً لكل مذلة واستعباد

قال الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده في تفسير قول تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون : وإذا مروا بهم يتغامزون » مانصه :

إن الذين أجرموا وهم المتدون الأئمة الذين شربت نفوسهم الشر ، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق ، هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ، ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثته النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأس الدهماء وفي ضلال العامة وكانت دعوة الحق خافتة ، لا يرتفع بها إلا صوته عليه الصلاة والسلام

ثم يهمس بها بعض من يليه ، ويجيب دعوته من الضعفاء الذين تطمس أهواؤهم سبيل الحق إلى قلوبهم ، فيسير بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافوه ، ومن شأن القوي المستعز بالقدرة والكثرة ، أن يضحك ممن يخالفه في المنزع ويدعوه إلى ما يعرفه وهو أضعف منه قوة وأقل عددا »

لا ينبغي أن يهولنا الباطل مهما عظم ولا الشر مهما استفحل أن نكمن على أعقابنا منه ، بل يجب أن نتدرع بالجلد والصبر ونوطن أنفسنا على قول الحق مهما لاقينا في سبيله

روى الإمام الشافعي رضي الله عنه قال : حدثني عمي محمد بن علي قال : إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال: فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد ، فقال الحسن يا أمير

المؤمنين: سل عنهم ابن أبي ذؤيب، فسأله فقال: ماتقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثيرو الأذى لهم

فقال أبو جعفر قد سمعتم. فقال الخارجون ياأمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد.. فقال أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه، فقال سمعت ياحسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح: فقال ياأمير المؤمنين اسأله عن نفسك. فقال ما تقول؟ قال تعفيني يا أمير المؤمنين: قال أسألك بالله إلا أخبرتني، قال تسألني بالله كأنك لاتعرف نفسك قال والله لتخبرني.. قال أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله وأشهد أن الظلم ببابك فاش. قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى فخا ابن ابي ذؤيب فقبض عليه ثم قال. أما والله لولا إني ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك: فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين.. قد ولى أبو بكر وعمر، فأخذا بأقفاء فارس والروم. فخلى أبو جعفر فقاه وخلى سبيله. وقال والله لولا إني أعلم أنك صادق لقتلتك

أنة وأمنية

ها أنت ذا أيها المعلم الأثارى تئن ولا مناص، وقد انطلق صوتك فشق أجواز الفضاء وعلا صراخك حتى بلغ عنان السماء، وناديت ولكن لم يسمع منك هذا النداء.

أجل، فما نحن أولاء أيها القوم على حالنا من عشر سنوات مضت، فهلا ترثون لحالنا وتشفقون علينا؟ الحق إنها لحالة مؤلمة مضنية، حطمت أعصابنا، وأحمدت عزائمنا، وأزجت إلى أرواحنا الأحزان، وكفكفتنا قطرات من الدموع. وكدنا لانشعر لنا بمستقبل، ولا نبغى حياتنا على أمل، فحياتنا شقاء فى شقاء، نهارنا عناء فى عناء، وليلنا بلاء فى بلاء.

إن أعمالنا لشاقة مضنية متعبة، والأمانة الملقاة على عواتقنا، إن هى إلا فلذات أكباد فطرنا السعيد، فهم أطفال اليوم، ورجال المستقبل القريب، وإذن فما بال سفينة درجاتنا راسية، وسفينة غيرنا فى تيار العلاوات جارية. نعم فلقد انفردنا دون غيرنا بتحديد الراتب مع ضآلته، فالحديث منا كالقديم وكلاهما فى شقاء وعناء مستديم، فنظرة طالما تزيل عنا غيرة قد اعترتنا من سنين مضت، وتمسح عن وجوهنا البؤس والشقاء.

فورى السير أبو سمره
وكيل نقابة كفر الدوار

أثر الرسالة فى أخلاق العرب

المتأمل فى حالة العرب قبل الإسلام وبعده إلى حين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدرك فرقا كبيرا بين الحالتين : ما ذا يرى ؟ يرى استحالة من حال إلى حال لم يعهد لها مثيل فى تاريخ البشر .

قبائل كانت متعادية متباغضة سيوفها تقطر دما : وتلهب حقدا . لا يسكن لها جأش ولا يهدأ لها روع . فهى إما طالبة أو مطلوبة . ثم هى مع ذلك لا تدين لغير الوثنية ، ولا تعرف شرعة غير شرعة الجاهلية : لا نظام يحفظ جماعتها ، ولا كتاب يوحد وحدتها ، ولا قانون يحسم تنازعها . فهى فوضى فى العقائد ، فوضى فى الأخلاق ، فوضى فى الاجتماع . هذا ما فى سنة ٦٢٢ ميلادية على هذه الحال .

ثم يعود إليها فى سنة ٦٣٢ أى بعد عشر سنين ، فيجدها أمة من الدين على التوحيد الخالص ، ومن الأخلاق على شرعة الفلاسفة الذين قتلوا الميول علما . ومن الوحدة على مثل حال الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، ومن المحكومة على الديموقراطية الخالصة التى ذهبت اليونان والفرس والرومان ولم تحقق منها خيالا على كثرة ما بذلوه من الجهود : ومن القانون على دستور ثابت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ومن الاجتماع على مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ويرى فوق ذلك اجتماعا حيا متمتعا بروح قوية تبعث على الحركة والنمو والرقى والكمال . روح من تلك الأرواح التى هبطت على بعض أمم التاريخ فجعلتها خليفة الله فى أرضه .

وكل ذلك ليس بشىء بجانب أن تلك الروح روح جديدة ليست من نوع ما سبقها : روح رحمة وهدى ونور . روح تعليم وإرشاد وتخليص .

الله أكبر ! أمة كانت بالأمس ترسف فى قيود الجاهلية وتخوض فى غمرات الوثنية : وترتطم فى أحوال الفوضى والهمجية : تنهض بعد عشر سنين حية بأعلى روح اجتماعية عهدت فى الأرض .

أسحر هذا أم استحالة على غير مثال حدثت على يد رجل يريد الله أن يكون خاتم رسله إلى خلقه ولم ذلك ؟ ذلك لأن كل روح اجتماعية سبقت ، كانت توهم أهلها بأنهم خير لا لشىء إلا لأنهم أبناء ذلك الأب ، وأحفاد ذلك الجد : أو سكان تلك البقعة ، ولكن الروح الإسلامية جاءت بالمساواة المطلقة وأقنعت ذويها بأن الناس كلهم من آدم ، وأن آدم

من تراب ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو العمل الصالح . فتآخى بنو الانسان لأول مرة فوق سطح البسيطة

ثم إن كل روح اجتماعية سالفة كانت توهم ذويها بأنهم السادة الأعلون ، وأن سواهم العبيد الأذلون ، وأنهم وبلادهم وأهليهم وأموالهم لم يخلقوا إلا لخدمة شهواتهم ومطامعهم . فكانوا يفتحون البلاد ويدوخون الأمم لا لاصلاحها ولكن لسلب وجودها واجتياح ثمراتها ، وإذلال قادتها وهتك أعراضها .

أما الروح الاسلامية فكانت تدفع أهلها للفتح . والفتح كان حاجة كل أمة نامية — سنة الله في أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ومع ذلك فأنها ما طلبت بفتح البلاد الأذلال ولا سلب الأموال . بل كانت تخير أهالي البلاد المفتتحة بين الجزية أو الاسلام . والجزية ضريبة ضئيلة لا توازي عشر ما كانت تدفعه لسادتها من قبل . ثم كانت تترك لهم عقائدهم وعاداتهم وتحترم شيوخهم وشبانهم وكهولهم لا تمس من ذلك شيئاً .

فهذا الأدب لم يحصل في أمة قبل الاسلام ولا بعده . وفوق ذلك فأن الروح السابقة كانت لا تعتبر الأخلاق إلا فيما بين آحادها . فكان يحرم على الرجل منهم أن يغش بني جلدته . ولا يحرم عليه أن يغش سواهما . بل ربما عدت ذلك كياسة وفضيلة .

قام الرومان على حال يصح أن تسمى معها أمة راقية ، ولكنها لم تكن على شيء من المساواة والحرية والعدالة التي كانت للأمة العربية . فكم أبادت أمماً وسحقت أقواما .

ونبغ قبلها اليونان فانقسمت إلى عدة ممالك فلم تكن لها وحدة قط ، واشتهرت منها دولتان : أثينا واسبارطه ، فسلط إحداهما على الأخرى فجعلتها أثرا بعد عين ، ثم لم تلبث الثانية بعدها إلا سنين معدودة .

نعم نبغ في اليونان فلاسفة ومشترعون ، ولكن لم يكن منهم واحد في فضيلة أبي بكر ولا في شدة عمر في الحق ، ولا في زهد أبي ذر ، ولا في عبادة عبد الله بن عمرو بن العاص

نعم نبغ سقراط موحدا تقيا ، ولكن قتله اليونان لأنه بتوحيده كان غريبا فيهم ، ثم لم تبلغ تعاليم أحد من هؤلاء الفلاسفة مبلغا تساوي به فيما من أنوار الشريعة المحمدية .

كان أرسطو يعد الرقيق من نوع الحيوان ، وكان أفلاطون يعتبر الصنائع والمهن من الأعمال التي لا يصلح أن يتسع صاحبها بالحقوق المدنية :

ولو تأملت الروح الاجتماعية التي أتت على أيدي الأنبياء السابقين ، لوجدت أن الروح الاسلامية فريدة في بابها ، غريبة في ذاتها لم يسبق لها مثيل في العالم من يوم خلق الله الناس . أفيمن المتأمل على من أتى بهذه الروح برتبة النبوة والرسالة ؟

(يتبع) أحمد حسن الزيات